التشبث بالأرض في قصص الشارع الأصفر
لتوفيق فياض*

حسين أبو النجا

جامعة المسيلة

Résumé

Dans cet ensemble de nouvelles, Toufik FAYYAD aborde le thème de la fidélité à la terre en Palestine. Il ne fait aucun doute que cette question n'est pas seulement de l'ordre narratif mais une réalité vécue quotidiennement par les palestiniens.

Israël continue à utiliser la politique de la carotte et du bâton pour amener les palestiniens à fuir pour réaliser l'Etat purement juif.

En dépit de tout; les palestiniens continuent à être attachés à leur terre.

Cette souffrance dans la vie de tous les jours leur permet de rester tout à fait conscients de leur situation humanitaire et de faire de cet attachement le pivot de leur résistance.

إذا كان الإنسان الفلسطيني بعامة يعاني مأساة الغربة فإن الفلسطيني في الأرض المحتلة يعيش المأساة مزدوجة حيث يعيش في وطنه لو كان غريبا عنه، فهو وطنه من ناحية وهو ليس وطنه من الناحية الأخرى، ومن هنا فإنه يمثل الجانب التراجيدي الأصيل في مأساة العصر، ويحمل بين جنبيه التناقضين الأساسيين الغربة واللاغربة، التشرد والأرض، ومن ثم عبر النضال[1]، وهذه الازدواجية المركبة هي الدليل على موضوعية تمثيله لجوهر المأساة خاصة وانه "بوجود الحكم العسكري لا يمكن أن تكون هناك حرية سياسية"[2].

ولقد عرف الإنسان العربي في فلسطين المحتلة أنواعا كثيرة من المعاناة على مختلف الجوانب الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك بحكم"حبو النفس الكياني لدي الفلسطينيين"[3]، وكانت هذه المعاناة عملا إيجابيا في تكوين الإنسان الفلسطيني هناك تكوين متفرد يثمر في النهاية إنسانا ثوريا يعيش معركة المصير بكامل قدراته وحسه الثوري الأصيل تتضح فيه "الملامح الحقيقية للوجوه الحقيقية"[4].

ومن أهم أوجه المعاناة التي يعيشها الفلسطيني في الأرض المحتلة هي الأرض، والحق أن قضية الأرض تعد جوهر المأساة وبعدها المعقد الذي يشكل عبئا على الحضارة الإنسانية المعاصرة من جهة وهي من جهة أخرى عند الفلسطينيين"الرمز والقضية"[5]، وإذا كانت الإستراتيجية الإسرائيلية تتمثل في إقامة كيان الاغتصاب في أرض الميعاد فإن هذه الإستراتيجية كانت تقتضي دائما عمليات توسعية على حساب الإنسان العربي في المنطقة، وإن ما تتحصل عليه إسرائيل في مرحلة معينة لا يزيد عن أن يكون هدفا مرحليا أو تكتيكا خاصا يؤديان بدورهما إلى هدف أبعد من ذلك، وليس غريبا الآن أن يكون اغتصاب فلسطين تكتيكا يخدم إستراتيجية بعيدة تتضح في إقامة الكيان العنصري في قلب الوطن العربي.

إذا كانت الأرض هدفا من أهداف إسرائيل فان الصورة لا تتم بذلك وإنما تمتد إلى ما هو أبعد من ذلك فهي لا تريد الأرض فقط، وإنما تريد بالإضافة إليها تفريغ الأرض من العنصر الفلسطيني حتى تستشعر الأمان، ومن ثم تنطلق في توسعاتها الامبريالية الأخرى، هذه هي الرؤية الاستعمارية للكيان الصهيوني كما أثبتتها الوقائع التاريخية، وهي من جانب أخر تعكس البعد النضالي العميق للإنسان الفلسطيني في الأرض المحتلة والذي من خلال المواجهة تمكن من "المحافظة على الهوية المميزة"[6].

والملاحظ أن الإنسان العربي في إسرائيل ظل يواجه حصارا كبيرا في مختلف الميادين بهدف مضايقته، وجعله يشعر بأنه يعيش في الجحيم، وأن عليه أن يبحث عن أرض أخرى يرحل إليها، وهكذا فإن إسرائيل قد حاولت أن تسد أمام الفلسطينيين كافة الأبواب و لم تفتح إلا بابا واحدا وهو الرحيل عن الأرض.

ولكن الإنسان الفلسطيني عكس روح التمسك بالأرض والبقاء فيها رغم مختلف صنوف العذاب، وظل صامدا في الأرض ملتحما بها ومغنيا للإنسان والأرض على أنهما جزآن في جسد واحد.

وإذا كانت معاناة الإنسان الفلسطيني معاناة يومية أو كما يقول محمود درويش "معروض للإبادة"[7]، فانه يصدر عن تجربة تتميز أهم ما تتميز بالوعي العميق للجوهر الإنساني العام وهو احد الشروط الهامة لأي عمل فني يريد أن ينفذ إلى ضمير الإنسان العالمي.

وليس غريبا بعد ذلك أن يساهم الأدب في رحلة البقاء على الأرض والصمود فيها مهما تباينت تخطيطات العدو خاصة وان الرؤية الفلسطينية" هي التي منحت شعرنا أجمل ألوانه وأعمق نبراته[8] كما يؤكد ذلك سميح القاسم.

وهكذا يلاحظ الباحث في الأدب الفلسطيني في الأرض المحتلة أن نتاجا وفيرا قد تجند لرفض الطرح الإسرائيلي الرامي للترحيل، ولحث الشعب على المزيد من الإصرار على التمسك بالأرض، ومن هنا كان أغلب شعراء الأرض المحتلة يقاومون بقصائدهم هذه السياسة الإسرائيلية منطلقين من وعيهم العميق بجوهر القضية، ومن الإخلاص في الصدق الفني الشرط الثاني للعمل الفني.

وإذا كانت حركة الشعر في الأرض المحتلة "أكثر الفنون الأدبية تبلورا لما يدعمها من تراث شعري عريق[9] فان القصة كعمل فني من نوع آخر جاءت ووقفت بجانب الشعر في رسم صورة حقيقية للقضية تهدف إلى رفض التشريد، وحددت أمام القارئ الفلسطيني مهمته الأساسية وهي ضرورة الارتباط بالأرض وإفشال مخطط العدو في الترحيل، وهكذا فان الأدب قد توحد في قضية واحدة حشد لها كافة الإمكانيات حتى قدر لها النجاح، وبقي الفلسطيني في أرضه رغم المحاولات المختلفة ورغم الضغوط المستمرة التي مارستها إسرائيل بهدف بعثرة الفلسطيني وتمزيقه في العالم الواسع.

ولعل توفيق فياض من أبرز القاصين الفلسطينيين الذين دعوا إلى ضرورة التثبت بالجذور والأرض على اعتبار أن المحافظة على الأرض والبقاء فيها قضية وطنية خالصة يتعين على الإنسان أن يناضل من اجلها.

وتبدأ هذه القضية منذ أول قصة في مجموعته الشارع الأصفر، ففي قصة "الشارع الأصفر" يجد أمين أسعد نفسه وحيدا وسط عالم مليء بالزيف، خطيبته تتركه لتتزوج من أخر، ومجتمع المدينة يغرق في ذاتيته وينسى أنه مكلف بخلع هذا النعاس الذي يغط فيه، ولكن المؤلف لا يترك بطله أمين أسعد يتزلق إلى منحدر الضياء وقد توفرت فرص كثيرة لتسهيل

انحداره إلى الهروب من مواجهة القضية، بل يزوده برؤية واعية يحس البطل معها أنه يجب أن يتبلور هذا الوعي في سلوكه، وتتلخص هذه الرؤية في أن البطل يعشق حيفا "حبيبتي حيفا"[10]، وتحول الحب إلى جسد المدينة وأنوارها يعمق وعي البطل بالقضية، ويجعله يصر على البقاء في هذه المدينة رغم ما تضفيه عليه من حزن، وأن البقاء في المدينة رمز للصمود أمام محاولات السحق والإرهاب على المستوى الآني، وعلى المستوى البعيد رمز على الخلاص من كافة وسائل القمع البربرية. ومعنى هذا أن الفنان لا يفصل بين المدينة كجزء حضاري وبين المرأة رمز الخصب، ويتضح ذلك حين تطلب ريتا من أمين أن يرحل معها إلى المنفى فيرفض: "كلا يا ريتا، لن يغادر النجمان سماءهما ولن يكون منفيين في سماء أخرى[11]. إن رفضه لا ينطلق من رؤية رومانسية للواقع وإنما ينطلق من رؤية موضوعية تجسدها أغاني الأطفال كل صباح وهم ذاهبون إلى المدرسة"ولن أنساك أبدا لأنني إذا نسيتك ينساني الفرح[12]، ونستطيع أن نلاحظ أن الوعي الجماعي المتمثل في جيل الأطفال هو الذي ينعكس على الوعي الفردي للبطل ويواجه وعيا جماعيا يتمثل في رجال المدينة اللاهين، إن الوعي الفردي عند البطل هو وعي بين أثنين، وإذا كان رجال المدينة رمزا للرؤية المنهزمة، فان الأطفال رمز للرؤية التي يشير أمين أسعد إلى انتصارها حين يرفض الرحيل والهجرة" إني إذا هجرتك يوما تهجرني روحي وإذا ما نسيتك ينساني الفرح[13].

ولعلنا نلاحظ أيضا أن رفض الهجرة ليس هدفا في الشارع الأصفر وإنما هو بداية لفعل أكبر، وهو المشاركة في صنع الفجر العربي وسط ظلام الكيان الاستعماري، فأمين أسعد لا يبقى في الأرض فقط كرجال المدينة وإنما هو بقاء من أجل معانقة الشمس التي تفرش الأرض بالنور، ويمثل

ذلك في خروجه من الشرفة ومشاركته المتظاهرين في العيد "انك لن تهزم يا أمين ، لن ينتصروا عليك .- أيها الرفاق إلى الأمام، إلى الأمام[14].

وإذا كان المؤلف قد صاغ أمين أسعد من تناقضات الواقع، فانه لم ينس أن يصوغه أيضا بتناقضاته الذاتية الضاربة في أعماقه، فتقترب شخصية أمين أسعد من البطولة التراجيدية والبطولة الملحمية في آن واحد، وذلك حين يكون الصراع في داخله بين الخير المتمثل في البقاء، وبين الشر المتمثل في الرغبة بريتا، بين الذات والواقع الخارجي، إن صياغة الفنان للبطل بالطريقة هذه أدت إلى أن يموت البطل في النهاية "وفي شارع الوادي المندى بدمع الصباح عبقت بدمع الصباح، عبقت بسمة الحزينة المنتصرة وعلى أسفلته تدلى حرير شعرها يحتضن دمعتين سقطتا وقطرة دم تحت عجلات المرحلة المتقدمة[15].

على أن موت البطل في النهاية يقترب من البطولة الملحمية، وليس ذلك خارجا عن تفاصيل القصة الفنية وإنما هو نابع منها، وحتمية تفرضها الأحداث وتطورها منذ خروجه من السجن إلى موته، مرورا بلقاء وداد وريتا وزيف مجتمع المدينة. إن الحس الملحمي ليس شكلا فنيا وإنما هو منهاج فكري ورؤية واقعية في صياغة الفنان لقصته، والدليل على ذلك أن الفنان وإن كان المشكل مركبا نوعا ما يخاطب حسا شعبيا بحس شعبي ليلتقي الحسان معا، ويخدمان قضية البقاء في الأرض الأغنية التي يعزفها توفيق فياض في أغلب قصص المجموعة.

وعلى مثل هذا النحو يعالج توفيق فياض في قصة "الراعي حمدان" الإصرار على البقاء في الأرض وتحدي الإرادة الاستعمارية، فحمدان يتعرض باستمرار لهجوم الذئاب على قطيع الغنم، والذئاب هنا رمز للنظرة الإسرائيلية المستعمرة ومن هنا فإنها تجسيد حاد للأزمة، فحين يشتد

خطر الذئاب يفصل ناجي أغنامه "عن القطيع ليترع بها إلى الغور مع بعض الرعاة من القرى المجاورة[16].

ويضطر حمدان إلى رفض التروح إلى الغور[17]، وحين يصر ناجي على نصح صديقه يصر حمدان على رأيه[18]، ويعلن اختياره "أما أنا وراك منيش مشرق يا ناجي"[19]، وهو لا يختار عن جهل وإنما عن وعي، فهو من هذه الأرض وإليها "والله ماني هاجرك يا هالبلد لو بفطس في زقاقاتك وما بلاقي مين يدفعني[20]، ولأنه يثق في صحة اختياره فإنه لا يتراجع عنه "حمدان قال كلمته وبرجعش فيها"[21]، وليس الأمر عنادا محضا وإنما هو ينبثق من رؤية واضحة مفادها أن " مية الغربة عشاربها حنظل يا ناجي وبرسيمها الأخضر عالغنم عليق"[22].

إن هذه الرؤية ليست رؤية فقط، وإنما هي بالإضافة إلى ذلك موقف من الحياة على المستوى الرمزي، وموقف الأرض على المستوى الواقعي مما يتيح لحمدان الفرصة لكي يعبر عن البطولة ويصنعها في الوقت نفسه، ويكشف عن ذلك جلوس حمدان متكئا على عكاز زيتون إلى جذع تينة قديمة[23]، عندها حسم أمره وبقي في الأرض ماردا يضرب المثل على العمق الكفاحي للأرض من حيث هي "قضية تعاش كل يوم[24].

إن توفيق فياض حين يختار أمين أسعد من المدينة وحمدان من القرية للتعبير عن ارتباط الفلسطيني بالأرض يقول لنا بأن قضية الأرض ليست قضية الفلاح فقط، وليست قضية فئة دون الأخرى، وإنما هي قضية الجميع، يستوي في ذلك ساكن المدينة وساكن الريف، ويستوي فيها مالك الأرض والعامل فيها وأولئك الذين ليس لهم أرض أيضا، إن الأرض هنا قضية عامة أكبر من أن تتغطي بالتجاهل كما يقول غسان كنفاني[25]، وتتجسد من خلالها وطنية الإنسان من ناحية، والحرص من ناحية أخرى على الحياة كأحد أهداف الإنسان النبيلة.

إن أمين أسعد والراعي حمدان لا يلتقيان فقط في البقاء في الأرض ولكنهما يلتقيان في أكثر من جانب وعلى أكثر من مستوى، فعلي الصعيد الفكري يلتقيان عند الإخلاص للقضية إلى أبعد الحدود، ويلتقيان على المستوى الاجتماعي حين يبقيان وحيدين على الأرض بعدما تفرق الشمل من حولهم، ذهبت ريتا وذهبت وداد في قصة الشارع الأصفر، وذهب ناجي في قصة الراعي حمدان، ويلتقيان أيضا في أنهما بطلان ملحميان كأبطال السير الشعبية يمثلان انتصار الخير على الشر، وما الاختلاف في البيئة الاجتماعية إلا تنويع في سيمفونية واحدة وهي أن الكل في خدمة البقاء في الأرض.

إن توفيق فياض يدور في درامية البقاء في الأرض، ولا يعدو أن يكون حمدان وأمين أسعد إلا نقاطا في الدائرة، فهم جميعا مرتبطون" ارتباطا عضويا لا ينفصل[26]، بالأرض الموضوع الأساسي في الشارع الأصفر.

ولا يكتفي توفيق فياض بالاثنين في دورته، وإنما يضيف إليهما شخصا ثالثا يمثل القطاع الفلاحي لتكتمل دائرة الإنسان في تمسكه بالأرض وشموخه عليها.

فأبو حسين في قصة "الفرس" فلاح" صودرت أرضه ولم يبق منها غير قطعة صغيرة لا ترد عن أبنائه "هكذا"عائلة الجوع[27]، ولكنه يرفض الانصياع للمصادرة، ويعلن عن عزمه الالتصاق بالأرض "أما إن يتخلص عنها فهذا مستحيل"[28]، وليس ذلك صلابة في الرأس وإنما هو تتويج لجهاد طويل من أجل المحافظة عليها "لقد كافح من أجل الاحتفاظ بها[29]، وكان وحيدا في ذلك الكفاح، وكان الكفاح في أشد المراحل قسوة "لقد عانقها في جحيم الحرب[30]، وإذا كان قد عانقها في الحرب وكانت الحرب ضروسا فإنه الآن سيعانقها من جديد وبإصرار كإصراره الأول

"وسيعانقها الآن مرة أخرى[31]، ويعلن عن استمراره في ذلك "إلى أن يلفظ أنفاسه[32]، وهو يعرف أن هناك معركة، وأن أي معركة ينتصر فيها المتقدم على عدوه من أجل الحياة، ولكنه يعرف أيضا أنه أكثر تقدما من عدوه وإن كان الظاهر لا يعكس ذلك، ولذا فإنه متيقن من الانتصار في معركة البقاء في الأرض "ولابد له من أن ينتصر في النهاية[33]، وإذا كان الوتران الأولان بعيدين عن ملكية الأرض، فان الوتر الثالث، وهو مالكها، وهو صاحب المشكلة الأول، ومن هنا فإن الأوتار الثلاثة تعني استقامة منطق الأشياء الواقعي والتجريدي معا، وتعني أيضا أن السلاح قوي في يد أهل الأرض المحتلة، وأنهم سيجعلون العدو يخسر المعركة، ويفشل في تهديده الجغرافي، وفي تهديده الروحي معا.

إن توفيق فياض وإن كان يصرح بهذه النغمة كثيرا إلا أن تصريحه ليس صراخا خارجا عن فنية المنهج القصصي، و إنما هو يجمع أدواته المختلفة ويوظفها في خدمة هذه القضية، ويبرهن على أن الجميع حريصون على البقاء في أرضهم مهما اختلفت بيئاتهم الاجتماعية، ومهما كان اقترابهم أو ابتعادهم من القضية، لان القضية عنده ليست ذكرى فقط، وإنما هي ذكرى ورؤية للمستقبل أيضا، تتكلم باسم شعب كامل لم يستطع الإرهاب والاضطهاد إخماد صوته المدوي: إنا هنا باقون.

على أن الفنان وهو يكمل دورته مع الإنسان في الانتصار على الإرهاب والتنظيف لا ينسى أن يضيف بعدا آخر لدائرته الدرامية، وهو أن الإنسان الفلسطيني ليس هو الوحيد المشارك في هذه المعركة، وإنما هناك أطراف أخرى تناصره في نضاله، فالفنان ينتقل من الإنسان إلى الحيوان ليقول لنا إن كل الأشياء الفلسطينية متحدة في موقفها ضد العدو، ففي قصة "الكلب سمور"نجد أن سمورا يرفض الهجرة المفروضة عليه ويعود إلى القرية

ثانية[34]، والعودة هي البقاء قبل أن تكون حلقة بين لقاءين، ويتأكد بذلك أن المجابهة وتوحد القوى ضمان أكيد على الانتصار.

ولعل توفيق فياض هو القاص الوحيد الذي قام بمثل هذا الجمع العميق بين فئات الصامدين في أرضهم على اختلاف أنواعهم وعلى اختلاف فئاتهم، وعلى التراوح بين الانتصار والهزيمة، وعلى البقاء في الأرض بتجربة ومن دون تجربة وبهذا يتمكن الوعي السياسي والوطني من "استلهام المعطيات والنتائج التي أفرزها الاحتلال[35]، ومن هنا يتفاجأ العدو بفن وموقف متحدين ضد محاولاته التنظيفية، وحين كان العدو يتجرع طعم الهزيمة كان غناء الأطفال يرتفع" اقسم أن افعل، لأني إذا هاجرتك يوما تهجرني روحي، وإذا نسيتك ينساني الفرح[36].

ومن المؤكد أن مثل هذه القصص حين تصر على البقاء في الأرض "في ظل ظروف القمع الفاشستية التي يتعرض لها المواطن الفلسطيني في الأرض المحتلة"[37] فإنها تستحق أن تصبح بحق قصص مقاومة يقرأها الناس بفرح وهم موقنون من أن المستقبل يختلف" عن الماضي"[38].

هـــوامـــش:

* توفيق فياض، **الشارع الأصفر**، دار العودة، بيروت، 1970 الطبعة الثانية.

يعدّ توفيق فياض من الكتاب الفلسطينيين المبدعين في القصة والرواية، ولد في قرية المقيبلة في المثلث قرب جنين- فلسطين عام (1938)، ودرس في ثانوية الناصرة وكان يعمل في دائرة الجمارك 1970، اعتقل مع شبكة اتهمتها إسرائيل بالتجسس لصالح سوريا ضدها، وأطلق سراحه عام 1974 ضمن عملية تبادل أسرى مع مصر، ونفي إلى القاهرة ثم انتقل إلى دمشق وبيروت، وهو اليوم مقيم في تونس. من مؤلفاته: **المشوهون** (رواية)، **الشارع الأصفر** (قصص)، **وادي الحوارث** (رواية)، **البهلول** وقصص أخرى (قصص)، **بيت الجنون** (مسرحية).

1. صالح خليل أبو أصبع، **قراءات في الأدب**، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس- ليبيا 1978، ص47.
2. د. صالح عبد الله سرية، **تعليم العرب في إسرائيل**، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت1973، ص16.
3. عيسى الشعيبي، **الكيانية الفلسطينية، الوعي الذاتي والتطور المؤسساتي1947-1977**، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت 1979، ص47.
4. سميح القاسم، **عن الموقف والفن، حياتي وقضيتي وشعري**، دار العودة ،بيروت 1970، ص98.
5. **الكيانية الفلسطينية**، ص63.
6. **حركة التحرير الوطني الفلسطيني"فتح"**، دراسات ثورية، منشورات الثورة، د.ت، ود.م، ص83.
7. محمود درويش، **يوميات الحزن العادي**، دار العودة، بيروت1981، ط3، ص51.
8. **عن الموقف والفن**، دار العودة، بيروت1970، ص105.
9. ريتا عوض، **أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979، ص250.
10. **الشارع الأصفر**، ص28.

11. المصدر نفسه ص29.

12. المصدر نفسه ص30.

13. المصدر نفسه ص30.

14. المصدر نفسه ص 32.

15. المصدر نفسه ص 32.

16. المصدر نفسه ص42.

17. المصدر نفسه ص42

18. المصدر نفسه ص42

19. المصدر نفسه ص43

20. المصدر نفسه ص43

21. المصدر نفسه ص46

22. المصدر نفسه ص46

23. المصدر نفسه ص51

24. خليل السواحري، **زمن الاحتلال**، قراءة في أدب الأرض المحتلة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق1979، ص99

25. غسان كنفاني، **الآثار الكاملة، المجلد الرابع"الدراسات الأدبية"** مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، دار الطليعة، بيروت1977، ص51

26. د.هشام ياغي، **القصة القصيرة في فلسطين والأردن 1850-1965**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت1981 ، الطبعة الثانية ص117.

27. الشارع الأصفر، ص64

28. المصدر نفسه، ص65

29. المصدر نفسه، ص65

30. المصدر نفسه، ص65

31. المصدر نفسه ص65

32. المصدر نفسه ص65

33. المصدر نفسه ص65

34. المصدر نفسه ص120

35. فخري صالح، **القصة الفلسطينية القصيرة في الأراضي المحتلة**، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين- فرع لبنان، ودار العودة، بيروت1982، ص11

36. **الشارع الأصفر**، ص30

37. احمد أبو مطر، **دراسات في الأدب الفلسطيني**، دار الطليعة للطباعة والنشر، الكويت 1979، ص10.

38. نبيل سليمان، **الرواية العربية، رسوم وقراءات**، مركز الحضارة العربية، القاهرة1999، ص59.